لماذا لم أكتب، لماذا كتبت ؟

منى فياض

ما الذي يدفعنا لكتابة ما نكتبه ؟
ما الذي يدفعنا للبحث ؟ وللبحث فيما نبحث فيه ؟
تساءلت طويلا، هل يحق لي ان اكتب ما اود كتابته في هذا العدد من باحثات ومحوره « المرأة والكتابة »، وبالطريقة التي فكرت ان اكتب بها، اي ان اعود الى نفسي واتساءل لماذا لم اكتب ولماذا كتبت ؟ تساؤلي يتعلق بمفهومنا عن الكتابة، والتي غالباً ما نفصلها عن البحث العلمي او الانساني وعن ذاتنا، وسوف يتوضح ذلك لاحقاً، لكن اموراً عدة جعلتني أحسم امري وأجد مبرراً لي كي أكتب ما وددت كتابته رغم عدم اندراجه في المفهوم الشائع للبحث او للكتابة، منها ما يورده DEVEREUX[1] « من ان كل بحث هو وثيق الصلة بالذات *autopertinente* على المستوى اللاواعي » ؛ كذلك ما ختمت به سعاد جوزف بحثها « اننا دائماً ندرس انفسنا. واعتقد اني لم أكن اعرف مدى صدق ذلك بالنسبة اليّ. ويزداد الآن عمقاً فهمي هذا البحث، إذ أنني أجد أني أتقدم ببطء نحو مسائل اكثر ارتباطاً بتكوين الذات. »[2]

ما اود القيام به هنا يتخذ مساراً مختلفاً، اذ انني اود العودة الى ذاتي والى ما رغبته، محاولة ربط ذلك بتاريخي الشخصي، المرتبط بدوره بتاريخ هذه البقعة التي أعيش فيها ؛ وهنا ايضاً تساءلت هل يحق لي تفسير مسار شخصي وعلاقة الذات بالكتابة بالعودة الى ظروف أجتماعية - ثقافية - سياسية طبعت منطقتنا بطابع معين في حقبة معينة ؟

ألا أبدو ذاتية واخلط الامور بعضها ببعض ؟

جعلني ما قرأته عند Wright MILLS[3] استعيد طمأنينة نسبية، اذ يناقش في كتابه *L'imagination sociologique* ضرورة توسيع افق السوسيولوجيا، لذلك هو يكتب عن « الخيال السوسيولوجي » ويعتبر هذا الميدان كفاتحة لأفق واسع، ويورد في هذا السياق، ان الدرس الاول الذي نتعلمه من هذا الالتماس هو : « فكرة أن الفرد لا يمكن ان يفكر تجربته وأن يعيش مصيره إلا في تموضعه في حقبته. وأنه لا يمكنه أن يعرف ما ينتظره من الحياة الا اذا عرف ماذا يمكن لكل الافراد الآخرين في مثل وضعيته أن ينتظروه منها. ويشكل ذلك من أوجه عدة درساً كبيراً وقياسياً في الوقت نفسه ».

أزعم انني أعي الآن ان الإجابة على سؤال لماذا نكتب او لماذا نبحث، ولماذا نكتب ما نكتبه او نبحث ما نبحثه صعبة جداً، ولا بد انها قصة طويلة، تتعلق بتاريخية كل واحد منا، بعلاقته بالآخرين وبنفسه، بمحيطه بالمعنى الشامل، أكان واحدنا رجلاً أم امرأة، رغم ذلك سأحاول الاجابة.

باكراً، وقبل ان اعي رغبتي بالكتابة، وعيت وبشدة رغبتي بالقراءة.

اذكر انني كنت في صف ابتدائي، صغيرة في السن، وكنت على سطح بيتنا، العقد الحجري القديم ذي السطح الطيني المكسوّ بالأعشاب، في قريتي، عندما نظرت فجأة الى صفحة كتاب التاريخ الذي كنت اقرأ فيها[4] نظرة مختلفة، لم تعد « درساً »، صارت شيئاً آخر، استمتعت بقراءتها، استمتعت بالمعرفة التي أطلت من بين الأسطر.

عندها بدأت القراءة تشكل لي هاجساً، ولقي هذا دائماً تشجيعاً من محيطي، من اخوالي في البداية (كانت امي على سفر) ومن امي فيما بعد، واذكر انها كانت تعطيني المال اللازم، عندما قضينا فترة في القرية، كي اذهب وحدي في سيارة الاجرة التي يقودها رجل من القرية، الى المدينة الصغيرة المجاورة كي اشتري مجلتي الاسبوعية واعود، وكنت في حوالي العاشرة حينها.

لم يكن سلوك امي معتاداً في القرية، كما انها كانت تثير استغراب جيرانها عندما كانت تصر على ارسالي الى المدرسة

سيراً على الاقدام في أيام الشتاء العاصفة : « ماذا ؟ هل سوف تنال الشهادة اليوم ! »[5]

كانت القراءة اذن نهماً لايني اشباعه يشكل مصدراً لجوع اكبر.

وهكذا، اذكر في تلك الفترة ان اسرتي قضت عطلة الصيف في جباع (مصيف جنوبي)، استأجروا هناك بيتاً عند اسرة لديها صبي في مثل عمري او اكبر قليلاً ، وجدت عنده في زاوية تحت بيت الدرج، صندوقاً مليئاً بتلك المجلات التي كنت اقصد النبطية لشرائها، وكانت تلك من امتع الصيفيات التي قضيتها ولا انساها.

بعد ذلك، في حوالي سن الرابعة عشرة او الخامسة عشرة، اخذتني رغبة شديدة في الكتابة، واتخذت قراراً خطيراً، فأحضرت دفتراً وقلماً وبدأت بكتابة رواية، اردتها طويلة، عن فتاة اسمها صفاء، كتبت عدة صفحات واحتفظت بالدفتر لفترة طويلة، ثم اضعته بعد ذلك.

وأذكر انني كتبت بعض الشعر، مرة ارسلت قطعة منه الى اذاعة صوت العرب التي كنا ندمن على سماعها، واذيع عبرها وصار من حولي يقول لي انه سمع شعري على الاذاعة.

ثم توقفت عن كتابة روايتي تلك. ما الذي منعني عن اكمالها ؟ ما الذي منعني فيما بعد عن تكرار المحاولة ؟ لا ادري.

لا بد ان من يتخذ مبكراً، او غير مبكر، قراراً في ان يكون كاتباً يمتلك شجاعة كبيرة، او انه يمتلك ثقة كبيرة في الحياة، هكذا، حتى يسلمها نفسه وافكاره ويقبل تأرجحها وترددها تجاهه !

اي ثقة تجعل من مجرد القراءة والكتابة (الممتعتين) احد مشاغل الحياة « الجدية » او شغل حياة !

عندما كنت صغيرة، لم اعتقد ان الكتابة تعد مهنة، هل هي كذلك الآن ! خاصة في هذه الزاوية من الكرة حيث المشافهة هي الاصل ؟ والتلفزيون هو الفرع، وحيث قلق العيش هو الطاغي !

ثم من الذي يمتلك الثقة في انه سوف يكون كاتباً او باحثاً وناجحاً ؟

قد تكون الاجابة البديهية على ما اقول، ان امتلاك مهنة اصلاً للفتاة لم يكن الزامياً ومعتاداً في بلادنا، لكن في الفئات المتوسطة التي انتمي اليها وفي تلك الفترة بالذات (الستينات) كان يمكن للفتاة ان تختار مهنة، اذ لم يعتقد اهلنا حينها ان الزواج هو

« مهنة » الفتاة الوحيدة، كانت رياح التغيير قد اصابتهم هم ايضاً[٦] عندما اعود الى تلك الفترة الآن، اجد ان توقفي عن الكتابة اومحاولتها او توهمها، ارتبط بمرحلة اتسمت بالنشاط، اذ أذكر انني بدأت اهتم باحوال العالم من حولي، ليس الاهتمام فقط اذ ان جميلة بوحيرد شكلت باكراً جداً مثلاً، لكن المرور الى الفعل، اردت معرفة اشياء كثيرة، وبتأثير من الافكار التي سادت حينها : عن الثورة العمالية والوطنية وعن العدالة الاجتماعية ؛ وذلك ما دفعني ذات صيف الى امضاء جزء كبير من عطلتي الصيفية في معمل للشكولا، اصفّ قطع الحلوى الذهبية في علبها الملونة. لكن تجربتي كانت عبارة عن « زيارة » حيث عوملت « كضيفة ».

وكان وجودي بينهم نوعاً من الفضول المتبادل، لكنه جعلني اعي ذاتي بشكل مختلف واعرف انني مهما ملكت من افكار فإن لي مصيراً مختلفاً عن مصير الفتيات والفتيان الذين جاورتهم لفترة قصيرة.

بعد ذلك بمدة، كنت في سيارة اجرة، واذيع نبأ استقالة عبد الناصر وسمعته يتكلم، عندها بكيت، بكيت حيث انا جالسة بين آخرين. لم أرَ شيئاً حينها، فقط غيمة مبللة غطت الاشياء بمائها المالح.

النكسة !

اذن الطائرات المتهاوية كالذباب، الشعارات، الانتصارات، اغاني ام كلثوم وعبد الحليم حافظ وكل الآخرين، وسنحارب و... و...

ذلك كله لم يكن شيئاً. كنا مهزومين. واستقالته كانت منتهى الذل والذنب.

الآن عندما اسأل نفسي، ما دخل ذلك كله بكتابتي او عدمها ؟ هل تفسر الاحداث الخارجية سلوكي الداخلي الحميم ؟

لماذا وجدت نفسي متخلية عن فكرة الكتابة، عن الادب والشعر، ما دخل تمردي على بديهات الفئات الاجتماعية وطبقاتها، ما دخل شعوري المضني بالهزيمة، بخياري فيما افعله بنفسي ومن نفسي ؟

يكتب DEVEREUX[٧] « ان ايديولوجية العالم، هي نتاج الحضارة التي ينتمي اليها، وتؤثر في آثاره œuvre راديكالية. » يعطي مثلاً على ذلك احد اشكال السلوكية التي كانت في اصل معظم الاعمال النفسية المحققة في اميركا وكل ما تم تحقيقه في روسيا. وهو يرى

ان اثر الايديولوجيا له نفس اثر الثقافة، الطبقة والارتباطات المهنية للعالم.

يدفعني ذلك الى التساؤل، لو انني لم املك حساً نضالياً حينها، او لنقل نزعة نشاطية ورغبة تبلورت في ظروف معينة تتوهم امكانية تغيير العالم عبرّت عن نفسها في نضالات صغيرة متتابعة وفي الانخراط في تنظيم يساري، اكان اختلف الامر ؟

الم يكن الكاتب والكتابة الادبية نفسها تمثل في حينها النموذج الحاد للسلوك البرجوازي غير المرغوب فيه وحيث نموذج « الكاتب في برجه العاجي » يُنظر اليه بعين ناقدة ؟ كنا نقرأ احسان عبد القدوس ونعجب به خفية، اذ ان عالمه كان عالماً برجوازياً واهتماماته غير « جدية » او « نضالية ». في مثل ذلك الجو لم يكن من مبرر لقراءة اذا لم تكن « جدية » و « علمية » واذا لم تطاول لينين وماركس وألتوسير وسارتر وسيمون دوبوفوار وانور عبد الملك وآرون و ...

هل يمكن ان يكون الشخص مناضلاً نشطاً وكاتباً في الوقت نفسه او شاعراً ؟

لقد طبعتنا تلك المرحلة بطابعها، او انني املك استعداداً ذاتيا لذلك، فحتى الآن ابحث عن « شرعية علمية » وغطاء « موضوعي » لما افكر فيه قبل صياغته وكتابته، واحتاج الى مراجع كي ابرر لنفسي سلوكاً معيناً، وكي لا اترك لذاتيتي العنان، وهذا من إرث تلك المرحلة : ممارسة النقد الذاتي، الابتعاد عن الذاتية لان في ذلك ابتعاداً عن كل ما اعتقدناه يطبع الشخصية العربية المهزومة بإرثها التقليدي وبممارساتها جميعاً، الابتعاد عن المغالاة والمبالغة وعن تمجيد الذات عبر تمجيد الماضي، البحث عن فهم موضوعي، او عن مجرد فهم لواقعنا ولمحاولة معرفته بما هو عليه، وعدم الهروب الى الخيال او الغرق في الافتخار بامجاد زالت ولا تزال تغشي اعيننا ببريقها الموهوم، تماماً، كما لا نزال نرى الآن التماع بعض النجوم التي تكون قد زالت منذ الآف السنين، بينما ضوؤها لا يزال يصلنا معلقاً وحده في الفضاء.

لذلك كان « النضال » يتم على مستويين، مستوى الخارج عبر العمل على تحسين الظروف الاجتماعية للفئات المسحوقة (وهي شديدة التنوع من العامل الى الطالب الى الفلسطيني الى المرأة ...)،

ومستوى الداخل عبر بناء شخصية مثقفة وقادرة وعالمة تستبدل الثقة التي فقدت او سحبت من البنى التقليدية المحيطة والمتمثلة بالعائلة وبالثقافة التقليدية والبنى السياسية المتوارثة، اي رفض الـ imagos السائدة كلها ومحاولة بناء بدائل عنها، وكان غيفارا احد ابرز صورها وكانت انجيلا دافيس (المرأة السوداء) رديفاً ولو شاحبا له. اين الادب من ذلك كله بحسب مفهومنا له آنذاك ؟

كانت البكالوريا الادبية، كما الآن، هي الخيار الثاني، بمعنى الاخير، لمن لم يستطع القيام بعبء الخيار الاول : الماتيليم » اي الشهادة العلمية. واختيار البكالوريا الادبية لم تكن تتم لدراسة الادب، التي كانت فكرتي عنه لا تخرج عن الاشعار التقليدية التي تعرفنا عليها والطريقة التقليدية التي تعلمنا بها الادب حسب منهاجنا الثانوي. اذكر مرة انني كتبت في موضوع انشاء « وتزحلق بصري » وناقشتني معلمتي لمدة ساعة كيف انه ليس بإمكاني قول ذلك، فالنظر « لا يتزحلق » !

الادب اذن لم يكن يغطي طموح « العلمية » المبتغاة من اجل « النهوض » بالمجتمع والمساهمة « بتطويره » ولا هو يسمح لنا بإظهار اي ابتكار. وهكذا مرّت فترة دراسية، لم اقرر اختصاصي فيها الابصعوبة شاقة، اذ رغبت عندها الالتحاق بفرع الصحافة الذي كان جديداً آنذاك. لكن محيطي لم يحبذ هذه الفكرة : الصحافة لامرأة ! انها مهنة شاقة وغير مستقرة و ... و ... وكذلك رفضت انا فكرة دراسة الطب التي نوقشت معي حينها. كنت ارى ان ما تتطلبه هذه الدراسة من جهد ومدة زمنية طويلة لا تتناسب مع مصير الطبيب الذي يفني عمره فيما بعد في فحص المرضى بالعشرات، (لا بد من الاشارة هنا ان اختصاصي وما اقوم به الآن هو جمع لهذه المتطلبات كلها. اكتشفت هذا حديثاً).

اذن عدت من دراستي الى وظيفة محددة، كنت تناسيت حينها أمر الكتابة وامر الصحافة، لكن عودتي الى لبنان وتسلمي لوظيفة تعليمية لم تجعلني اركن للتعليم عبر تحضير دروس من كتاب معين بل شرعت في اعداد « كور » تحول فيما بعد الى كتاب في التغذية قد يستغرب البعض انني مؤلفته.

اندلعت الحرب في تلك الفترة، وكنت حاملاً بابنتي، فلم اشارك بأي من نشاطاتها (سوى الذهنية منها، مثل التحمس او الغضب او

الحزن، وكان الندم آخر هذه المشاعر). لذلك شعرت انني اذا لم اقم بشيء ما فسوف اشعر بانسحاق لا يحتمل، وكما يقال تطفو الذكريات، اجد شخصياً ان ما يطفو دائماً هو الرغبات ؛ وهكذا تسابقت مع الوقت في فترة حملي، وشعرت بضرورة انجاز شيء ما قبل ولادة الطفل التي قدرت انها سوف تجعلني منهمكة لدرجة فقدان الذات، لذلك سارعت في البدء بترجمة كتاب كان يشكل حينها محطة مهمة في حركة الافكار في اوروبا، خاصة بعد الثورة الثقافية الصينية، وكان عنوانه شعار لـ« ماوتسي تونغ » « نصف السماء » ويقصد النساء طبعاً[8].

ترجمت نصف الكتاب واهملته، اذ رفضت احدى دور النشر، عبر صديق، القيام بنشره، ومن ثم تصاعدت الحرب الاهلية وولدت ابنتي وحدثت اشياء كثيرة ...

عندما اعود الآن الى تلك الفترة، ارى انني كنت أود عندها القيام بولادة اخرى غير ولادة ابنتي، شيء يؤكدني على المستوى الرمزي ويكون اكثر من ولادة بيولوجية. ولكنها الحرب ...

أتساءل الآن، كيف استطعت (استطعنا) العيش بصحبة الحرب كل تلك الفترة ! كيف انني (اننا) لم اشعر باليأس القاتل، كيف انني لم اذبل كما زهرة بعيدة عن الماء او عن الضوء، الذبول حتى الانحلال والتلاشي. كيف انني وبسبب الحرب (أحقاً !) لم اعد افكر بالكتابة جدياً وكهاجس دؤوب كما كان هاجسي في مراهقتي، او الآن مثلاً ؟

ما السبب !

لماذا نقوم بما نقوم به ؟ ما الذي دفعنا الى احتمال العيش، ذلك العيش الصعب والثقيل الوطأة والذي لا يكاد يحتمل في الاوقات العادية، وكيف استطاع العيش نفسه ان يحتملنا في تلك الحرب ! كيف امكن ان نقوى على كل ذلك الانتظار ليوم نبدأ فيه بفهم معنى ما عشناه، او الاستمرار في عدم فهمه واليأس من جراء ذلك ؟ واذا كان الكلام يتضمن غياب الاشياء والرغبة تتضمن غياب موضوعها[9]، فما الذي تفترضه الكتابة ؟ غياب الانتظار ؟ غياب يقين الحرب ؟ غياب صحبتها وغياب افتقاد الامل ؟ غياب اللحظة الحاضرة التي نعيشها وحضور المدى او المدة الزمنية التي تحمل

امكانية تتابعها وتواصلها، امكانية الغد كاحتمال غالب وليس كاحتمال منقوص ؟ ملأت الحرب الامكنة وملأت الفراغات التي كان يمكن لكتابة ما ملؤها[١٠]، افتقد الفراغ وامتلأ بالحاجات اليومية وبالانتظار، بالخوف وبفقدان الاطمئنان، امتلأ بالقلق، قلق متعب ينهك حامله ويعطله، اذ ليس من نوع القلق المتحرك المتوتر المتوثب الذي يسبق الولادة، اي ولادة ؛ انه القلق الذي يسبق الموت كذي طبيعة مختلفة عن الولادة والذي يشكل انقطاعاً عنها وليس تواصلاً معها.

خلف كل كتابة تكمن رغبة، وخلف كل رغبة هناك آخر، الرغبة بالكتابة هي الرغبة في الوصول الى الاخر، لكن في عمق هذا البحث عن الاخر هناك بحث عن الذات في نفس الوقت وعبر ملء فراغ غيابه بالكلمات، يمتلىء الفقد بهذه الكلمات التي تحاول تجنب جهلي وعدم معرفتي لذاتي، تصبح الرغبة حماية لهذا البحث المتناوب بين الذات والآخر.

يفترض ذلك كله ذاكرة تحصلت من قبل، لكن الذاكرة كانت تتحصل حينها يوماً بيوم من ضمن رفضها كذاكرة تتكون، اذ من يود ان تكون اشياء الحرب ومادتها ذاكرته ؟

هذه المفارقة التي اوجدتها الحرب في ثناياها جعلتني ابحث عن كتابة تبعد عن لعبة الرغبات الملتصقة بانا ذاتية ومعيشة وحية. لم يكن ممكناً القيام بذلك دون ان يطغى احساس بالانانية وبالابتعاد عن آلام الآخرين وباللجوء الى ما كنا نعرفه « بالبرج العاجي »، وقد يكون ذلك كله ايضاً بسبب التجربة السياسية والنضالية المبكرة والالتزام بمفهوم العدالة الاجتماعية، مما يجعل من كل التماس ذاتي شيئاً خارج اهتمامات تلك الفئة من تلك الحقبة.

ذلك كله جعلني ابحث عن ذاتي داخل اطار « علمي » و « اكاديمي » يتدرج في تطلب اهمال الذات واهمال الاهتمام بالمصائر الذاتية للافراد ورغباتهم.

اذن الذاكرة التي كان من الممكن اختراعها عند الكتابة لم يكن ممكناً ان تكون إلا في الاطار العلمي المقبول والمطمئن على صعد عدة، او في اختيار موضوع يلبي حاجة كامنة في الاهتمام بعذابات الآخرين ومحاولة فهمها. لذلك اخترت ميدان البحث ولجأت الى تحضير الدكتورا في موضوع الطفل المتخلف عقلياً. كانت تلك

الطريقة المثلى لي لجمع كافة التناقضات الملتبسة التي تجمع بين البحث عن معنى للوجود وبين الرغبة في محاورة الآخر عبر البحث عن الذات بطريقة خفرة وملتوية تلمح اكثر مما تفصح. لكن لذلك كله تفسير اضافي واكثر جذرية او لنقل تعميماً.

يكتب Wright MILLS منذ الستينات[١١]، ان لكل قرن طريقة في التفكير وهي تشكل العقل المشترك لحياته الفكرية ؛ في الحقبة الحديثة، كانت الفيزياء والبيولوجيا هما القاسم المشترك للفكر الرصين وللميتافيزيا الشعبية في الغرب، وفرضت تقنية المختبر كمنهج، كضمانة فكرية وهذا هو معنى القاسم المشترك، ان يستطيع البشر التعبير عن معتقداتهم العميقة تبعاً له، الافكار واللغات الاخرى لا تعود سوى ادوات هروب وظلام. طبعاً لا يعني ان يفرض قاسماً مشتركاً نفسه، غياب الافكار الاخرى والحساسيات المختلفة، لكن ذلك يعني ببساطة ان مراكز الاهتمام الفكرية العامة تنحو للانزلاق هناك، حيث تجد تعبيراتها الاكثر وضوحاً. ينحو الآن الخيال السوسيولوجي لان يصبح القاسم المشترك لحياتنا الثقافية المميزة، لكن ذلك يمربيط والم وهناك العديد من السوسيولوجيين الذين يجهلون ذلك.

يرى MILLS انه يتم اللجوء الآن الى هذا الخيال السوسيولوجي في كل الفروع العلمية والاخلاقية، في الادب والسياسة والصحافة.

ان الدور الثقافي للفيزياء، اقدم القواسم المشتركة، يتضاءل اكثر فأكثر فالفيزياء النووية الحديثة لا تحمل الحل للمشاكل، بل هي توجدها بالاحرى وخاصة على المستوى الفكري والاخلاقي، تتعلق عندها المشاكل الناتجة بالاجتماعي وليس بالفيزيائي.

شخصياً، عندما كنت أقرأ للكثير من كتابنا وروائيينا، كنت اجد انه من الصعب عليّ ان اكتب مثلهم، لم اكن ادري تماماً لماذا، لكنني كنت احياناً اجد هذه الكتابات ساذجة واحياناً غير متعمقة بما فيه الكفاية في أغوار النفس، او انها لم تكن تجيب على حساسياتي الشخصية التي كنت أجدها في كتابات اخرى وفي لغات اخرى. وعندما كنت اقرأ لنجيب محفوظ، او احسان عبد القدوس او يوسف ادريس، وكنت معجبة بهم، كنت اجد لديهم الكثير من الذكاء الثاقب، وفجأة اكتشفت عبر بعض قراءات

لنجيب محفوظ خاصة، انه يتصرف احياناً كباحث اجتماعي، الفرق بينه وبين هذا الاخير، انه ينتقي ما يريد ويملك حرية في الحركة لا يملكها الباحث، واكتشفت ان الفضاء الادبي او الابداعي[١٢] يتغير. كان الفضاء الادبي في القرن التاسع عشر الاوروبي والقرن العشرين العربي، هو الفضاء الاجتماعي، فعندما كتب ZOLA روايته *Germinal* ذهب وعايش عمال المناجم لاكثر من اسبوع كي يكتب روايته تلك. بعد ذلك انتقل هذا الفضاء الاجتماعي من الميدان الادبي الى الميدان البحثي الاجتماعي[١٣]، كما انتقل النضال ايضاً من ميدان الاحزاب الماركسية الى ميدان السوسيولوجيا[١٤].

اما الادب الاوروبي فقد وجد لنفسه فضاءً جديداً هو النفس او الذات او الداخل اذا اردنا، مع كتابات : كافكا - بروست - د. هـ. لورنس - جويس - فرجينيا وولف - الخ.[١٥]

ما السبب في ذلك ؟ ولماذا حصل هذا الانزياح في موضوع الكتابة الادبية المركزي ؟ ولماذا شكل البحث الاجتماعي الجواب على ما لم يستطع الادب الروائي تلبيته !

مرة اخرى نجد الاجابة عند MILLS[١٦] الذي ينبه نقلاً عن SNOW لوجود ثقافتين، الثقافة العلمية والثقافة الانسانية. فالتاريخ والدراما والبيوغرافيا والشعر والرواية، او جوهر الانسانية، كان الادب دائماً.

لكن يُسمع الآن وفي احيان كثيرة ان الادب الجدي اصبح من نواح عدة فناً قاصراً، وهو يرى ان ذلك لا يعود الى الجماعات والى وسائل الاتصال الجماهيرية والى كل ما يهدد ويثقل الانتاج الادبي، بل يعود الى نوعية التاريخ بحد ذاته في زمننا والى حاجة الانسان الحساس كي يلتقط هذه النوعية. وهو يتساءل : اين هو الابداع الروائي والصحافة المباشرة التي يمكنها ان تنافس الوقائع السياسية في زمننا ؟ اي رؤى دانتية يمكنها ان تباشر حجم الحرب العصرية ؟

ويتابع : انها الحقيقة الاجتماعية والتاريخية التي يود البشر معرفتها، وغالباً ما لا يحمل لهم الادب منها شيئاً. انهم يعانون عطش الوقائع ويبحثون عن المعنى، انهم يريدون ان ترسم لهم لوحة كبيرة تكون حقيقية، حيث يمكنهم ان يفهموا انفسهم، انهم يريدون ايضاً قيماً توجههم، انفعالات وانماط حساسية مناسبة لهم.

الادب اليوم لا يقدم لهم هذا وهل هذا دوره ؟ غير مهم، ما يهم هو ان البشر لا يجدون ما يبحثون عنه عبره وحده على الاقل.

قلت انني لم اكن اجد نفسي في الكتابة الادبية الشائعة، واضيف انني لم اكن اجدها في الكتابة العلمية والبحثية الجافة، والتي لا تعبر عن ذات عبر غرقها في الارقام والاحصائيات واللوائح الطالعة من استمارات تبغي الموضوعي « وتنشد العلمي »، وتبغي التعميم التابع للقاسم المشترك الخاضع للفيزياء بمختبرها وارقامها، كما يفسر ذلك MILLS بوضوح. لذلك ما قمت به كان عملاً يعتمد دراسة الحالات ومحاولة فهم وتحليل مشكلة التخلف العقلي وربط ذلك بالمحيط الثقافي والاسري والحضاري بشكل عام.

يطرح ذلك كله سؤال : لماذا ؟ ما السبب في ذلك ؟

تشير ابو لغد الى ان الموضوعية (حسب المفهوم الشائع لها) مرتبطة بالرجولة في تفكيرها بشأن العلم[١٧]، وتكتب سعاد جوزيف عن ان الاندماج في الموضوع هو منهج نسوي، فإذا كانت الارقام هي من ضمن الموضوعية بحسب المفهوم الذكوري، تكون دراسة الحالة هي من ضمن المفهوم المنهجي النسوي بحسب سعاد جوزف[١٨] ؛ اذاً دراسة الحالة هو نوع من التعبير عن هذا الاندماج بطريقة من الطرق، لا نقبل حينها ان نحيل البشر الى مجرد رقم او تواتر ما، بل نتعرف عليهم عن قرب، نعطيهم اسماً ولو مستعاراً، ننقل احاسيسهم ومشاعرهم. لكن النساء لا تنفرد بهذا النوع من الالتماس ومن بدأه وتعلمنا على ايديهم هم رجال. اذكر ان صديقاً قال لي مازحاً مرة، بعدما نشرت كتابي عن الطفل المتخلف عقلياً[١٩]، انه لامر سهل، ان نذهب الى الناس ونحادثهم وننقل حكاياتهم ونقول اننا قمنا ببحث والفنا كتاباً علمياً. يأخذني ذلك الى نقاش سائد في الاوساط المهتمة بالبحث، يرى البعض ان هناك فرقاً جوهرياً في النظر او في الرؤية بين النساء والرجال، تعبر عن ذلك مارلين فرنش[٢٠] الى ان التفكير الدائري هو تفكير انثوي، بينما التفكير التخطيطي هو ذكوري، وهنا لا بد من ذكر CAPRA الذي شرح ذلك، وهو يعود الى الحضارة الشرقية، الهندو - صينية لتفسيره وتوضيحه[٢١].

لكنني اتساءل دائماً اذا كان هذا الامر قاطعاً كما يبدو للوهلة

الاولى، اذ انني اقرأ احياناً لرجل واجد انني اود قول هذا، او انني اجده التفت الى نفس النواحي التي التفت اليها[٢٢]، واحياناً اقرأ لامرأة واقول ان لا دخل لي بمثل هذه الكتابة. هذا عدا عن ان معلمي الكبار في علم النفس وفي جل الميادين الاخرى، هم رجال. اين كان يمكن ان أجد العدد الكافي من النساء لتلبية حاجاتي الفكرية كلها ! وذلك طبعاً لقلة اعداد النساء الباحثات في جميع الميادين وحتى اشعار اخر، هذا عدا عن انني ما كنت لاقوم بقراءة اعمال نسائية فقط، وبالتالي اليست كتابتي هي مزيج من شخصيتي ومن تأثري بقراءاتي ! لذلك اسأل نفسي دائما، ولا اجد الاجابة : هل للذكورة ام الانوثة من تأثير على نمط الكتابة او البحث ! بمعنى انها وصمة او دمغة اكيدة تحيلني الى جنسي فقط ! واجد نفسي هنا متجاذبة، فمن ناحية لا اود ان توصم كتابتي بالذكورية، اشعر حينها انني لم اعد انا - انا نفسي، بل اصبحت شيئاً آخر غير محدد ؛ كذلك لا احب ان توصم كتابتي بالنسائية، اشعر حينها انني حيدت عن عالم معين، ميدان معين، سياق معين (فالكتابة هي ذكورية اساساً اليس كذلك ؟) يشعرني ذلك انني اصبحت منبوذة نوعاً ما.

وها اجدني الجأ دائماً الى DEVEREUX الكاتب والرجل، كي افهم نفسي وافهم اكثر علاقتي بالعالم، علاقتي بالموضوعية وبالذاتية، وهو اذ يدافع في كتابه *المرأة والاسطورة*[٢٣] عن منافع الاختلاف ويجد ان اللامساواة تنتج عن منافع الاختلاف ويجد ان اللامساواة تنتج عن النفي الكامن للتنوع، وان حل المشاكل كما تم حتى الآن حصل بواسطة وحدة قياس قاعدية، هي تلك المتعلقة بالرجل البالغ، وهذا برأيه ما يسبب او يؤدي الى مفهوم المرأة « كرجل منقوص ». ان هذا المفهوم بالذات هو الذي يجعلني اشعر بأن اختلافي ليس ميزة لي، بل هو ابتعاد عن المعيار السوي المقبول. وما قامت به الحركة النسوية تحديداً، هو جعلها لهذا الاختلاف امراً مقبولاً وممكناً بل ومرغوباً في احيان كثيرة، واعطت الثقة للمرأة بان بإمكانها ان تكون مختلفة عن الرجل دون ان يعني ذلك انها دونية.

لكن السؤال، هل يعني هذا ان الاختلاف يطال جوهر الكتابة ؟ بحيث انك عندما تقرأ نصاً، دون معرفة كاتبه سوف تعرف جنسه وذلك دون اللجوء الى الصيغ اللغوية التي تفرق بين المذكر والمؤنث ؟ وبهذا المعنى هل يمكننا معرفة عرق الكاتب او طبقته

الاجتماعية من مجرد قراءة نصه ؟ هذا ما لا اعتقده، ويمكن هنا العودة الى الكتابات النسوية féministes نفسها. تكتب H. ROBERTS[٢٤] في مقدمة كتابها، ان عنوان الكتاب *Doing Feminist Research* جاء تلاعباً على عنوان كتاب *Bell and Newbys/Doing Sociological Research* أكثر مما هو تأكيد على وجود بحث نسائي او طريقة نسائية في البحث، وهي تكتب ان البحوث النسائية توصف في الكتاب *PAYNE* بانها بيشخصية interpersonal skills وانها غالباً ما تكون موازية للابحاث النوعية، وهو ما اعتقده خطأ. تكتب ROBERTS وهي تتمنى ان يستعمل البحث النسائي من الآن وصاعداً التقنيات الكمية وهي تجد ان ما يميز البحث النسائي، هو موقف نقدي تجاه الطرق المتبعة بحسب A. OAKLEY وتجاه الاسئلة التي تسأل وتحددها المناهج والطرق المسموح بها.

وهنا قد يكون هدف الابحاث النسائية هو الغاء منع او تقييد بعض انواع الاسئلة، واجد ان ذلك ينطبق على كتابة السود الاميركيين مثلاً.

وحول هذه المسألة ومسائل كثيرة غيرها، اجد ان DEVEREUX وهو ليس مناضلاً او نسوياً، يقدم تفسيراً مشابها وتحليلاً يذهب في الاتجاه نفسه، بمعنى انه يوضح في كتابه الذي سبق واشرنا اليه[٢٥] هذه المسألة التي تساهم في توضيح الامر، من ان جنس الكاتب وثقافته وصورته عن نفسه وعمره وشخصيته، تؤثر كلها في بحثه العلمي، كما طبقته واشياء اخرى ...

وهذا ما يظهر ايضاً عبر بحث Ann OAKLEY[٢٦] اذ نلاحظ ان النساء مثلاً يختفين من الاستمارات السوسيولوجية، نظراً لان نموذج الذات عند الباحث الذكر هو الرجل.

نلاحظ هنا ادخال متغير جنس الباحث كمتغير مشابه للمتغيرات الاخرى وليس كمحدد وحيد لنوعية كتابة الشخص، خاصة المرأة.

الجديد في الموضوع هو ان هذا المتغير لم يثر الانتباه الا حديثاً، وذلك بسبب جدة دخول المرأة الى ميدان البحث ؛ وما يؤخذ على النساء عادة هو ادخالهن تجربتهن الشخصية في عملهن، بينما ينظر الى نفس السلوك من قبل الباحث الرجل بعين الرضا والقبول، وذلك بسبب العادة فقط.

اعتقد ان هذا الموضوع، اي الاندهاش امام الرؤية الخاصة للمرأة

16. C. WRIGHT MILLS, *op. cit.*, pp. 19 -20.

١٧ – سعاد جوزف، *في وطني ابحث*. سبق ذكره، ص، ٦٩–٧٠.

١٨ – ابو لغد، *في وطني ابحث*. سبق ذكره، ص، ٢١٦.

١٩ – منى فياض، *الطفل المتخلف عقلياً في المحيط الأسري والثقافي*. بيروت، معهد الانماء العربي، ١٩٨٣.

٢٠ – صنع الله ابراهيم، *التجربة الانثوية*. سبق ذكره، ص، ٢١٩.

21. F. CAPRA, *Le temps du changement,* Paris, Rocher, 1983, p. 30-43

يمكن مراجعته في كتابي : العلم في نقد العلم، بيروت، دار المنتخب العربي، ١٩٩٥.

22. « Les vies de Nietzsche. » in *Magazine littéraire.* Paris n° 1981, 1992.

في هذا العدد كتب Gilles Deuze عن نيتشه واحسست انني لا اعرف نيتشه الذي تكلم عنه (ص ٢١–٢٤) بينما كتابة Alain Laurent كانت قريبة مني واحياناً استشهد بنفس المقاطع التي كنت استشهد بها (ص ٣٤–٣٥).

23. G. DEVEREUX, *Femme et Mythe,* Paris, Flammarion, 1982, p. 8.

24. H. ROBERT, *Doing Feminist Research,* London and New York, by Routledge, Reprinted 1990, pp. XV-XX.

25. DEVEREUX, *op. cit.*, pp. 263-267.

26. H. ROBERT, *op. cit.,* pp. 7-16.

27. *Nouvel Observateur*, n° 1586, 5, Avr, 1995.

يكثر الحديث الآن، وتكثر الابحاث حول الاختلافات الموجودة بين دماغي المرأة والرجل، وللمرة الاولى تبرهن هذه الابحاث ان الجنسين يستخدمان الدماغ بطريقة مختلفة لعمل الشيء نفسه. لكن Antonio Dansio في العدد نفسه ص ٤٢، يرى أنه من المبكر جداً استخلاص النتائج النهائية لهذه الفروقات الذهنية عند النساء وعند الرجال.

الملاحظة الاخيرة، ان هذه الابحاث تجري على افراد بالغين يعيشون في ظروف معينة وتلقوا تربية معيّنة ولهم ارتباطات وعلاقات محددة، باختصار انهم يخضعون لنظرة الآخر منذ ولادتهم وعلى انهم من جنس معين، فما أثر ذلك على الدماغ بدوره ؟

وهل أن دماغ الوليد الذكر يختلف في عمله جوهرياً عن دماغ الوليد الانثى ؟ ذلك يتطلب الكثير من الوقت والبحث، ولا بد ان لكل شخص طريقته في التفكير وخصوصياته ايضاً اكان ذكراً ام انثى وتجاه افراد جنسه بالذات، قد يأتي يوم نملك فيه الادوات اللازمة لقياس هذه الاختلافات بدقة.

منى فياض

* لبنانية
* ثلاثة أولاد
* دكتوراه في علم النفس
* استاذه مساعدة في الجامعة اللبنانية
* عضو في تجمع الباحثات اللبنانيات
* لها مؤلفات والعديد من الابحاث والدراسات

*POURQUOI N'AI-JE PAS ÉCRIT ? POURQUOI AI-JE ÉCRIT ?**

Mona FAYAD

Dans cet essai, l'auteur analyse, tout d'abord, les facteurs subjectifs qui poussent à écrire (ou à ne pas écrire).

Dans un second temps, l'auteur se penche sur les facteurs sociopolitiques et culturels qui orientent l'écriture dans son choix, son style et son objet, puisque déterminant la subjectivité de l'être et son intériorité.

Enfin, l'auteur tente de se comprendre ; comprendre le « moi » et les désirs cachés, afin d'y saisir le rôle subtil des sexes...

*WHY DIDN'T I WRITE ? WHY DID I WRITE ?***

A voyage within the process of reading and writing since chilhood through the coming of age during the Lebanese war and beyond. A voyage of self-discovery and the full awareness of how much cultural and socio-political factors determine one's vocation and career.

* La version originale en langue arabe p. ٨١

** The original Arabic version p. ٨١